

الحب العزري عند العرب

أحمد الربيعي

خلد الادب العربي لونا من الشعر رفيعا في مثله وفنسه . تمثل في شعر اولئك المحبين الذين عرفوا في العصر الجاهلي بالمتيمين ، كالمرقش الاكبر وأسماء (١) والمرقش الاصغر وفاطمة (٢) وعبدالله بن العجلان وهند (٣) وعبدالله بن علقمة وحبيشه (٤) ومالك بن الصمصامة وجنوب (٥) . ثم أشهرهم عنتره وعبله (٦) . وقد أحب كل من هؤلاء المتيمين صاحبتهم حبا استأثر بحياته وفنه . وقصة كل اثنين منهم تصور في نشأتها وتطورها وعقباتها ونهايتها بيئة وتقاليد البادية أو القرى أو المدن العربية ، فقد نشأت اما في البادية حيث يخرج الفتى ينشد ضالته التي هامت منه في أرجاء الصحراء حتى اذا أعياه البحث وأجنه الليل مال الى حي من الاحياء فتأتيه فتاة الحي بالقرى فيأنس بها وتأنس به وتقع في نفسه ويقع في نفسها واذا بهذه الفتاة تصبح ضالته المنشودة في الحياة . أو أثناء الرحيل حينما ينقد ماء الركب فيخرجون على أول مضرب يقعون عليه فتخرج الفتيات بالماء فتقابل العيون (٧) وتحقق الافئدة واذا بالفتى يلقي عصا الترحال حول هذا المضرب . أو في المرعى عندما يقع الغيث وينبت الكلأ وتخضوض روابي البادية ويترنم مكاؤها (٨) ببشائر الخصب والنعيم فتبكر الفتيان والصبايا مع ديك الفجر بالابل والاعناب الى هاتيك الجنان التي تأرجح الربيع بمزوجها (وقد جاشت نفوسهم بأحلام الصبا الناعم) (٩) فيلتقيان عند منابع الكلأ أو منابع الماء متنافسين متنافرين كل يبغيهما لماشيته ، واذا بهذه المنافسة والمنافرة تقدح جذوة الحب في القلوب فيمضي كل واحد منهما وهو معنى بصاحبه ، ثم يضاعف شغفهما كلما التقيا . أو في الدار حيث تنشأ الفتاة مع ابن عمها أو ينشأ الفتى مع ابنة عمه فتنشأ بينهما (ألفه) تنمو وتتفتح مع الايام حتى اذا استيقظت بواكير صباهما اشتدت هذه الألفة فأصبحت « صبوة » فاذا للنظرة والبسمة والكلمة معان لم تكن لها من قبل . وما تزال هذه الصبوة تذكو مع نضج شبابهما حتى تضحي (هوى) يجمع بهما لعناق لا فراق بعده . فاذا هما يجدان في الزواج محط سعادتهما القصوى ، فيطمحان اليه . بيد أن ثمة عائق يحول بينهما ، فاذا ما شهر المحب حبيبته بما يرسل فيها من شعر فأذاع حبهما في الحي حرمت القبيلة زواجهما اتقاء مقالة السوء .

أو أن أسرته ليست كفاء لأسرة الحبيبة ، ثرائها وجاها فتأمل لفتاتها
 قرينا من أسرة كفاء ، أو قد يسمع بجمال فتاتهم رجل من قبيلة أخرى ممن
 ينعمون بالثراء ويرفلون بالجاه فيقدم لخطبتها فيؤثرونه فيحملها إلى دياره
 فيصعق فتاتها ويلحق بأظعانها وقد طار قلبه وذهبت نفسه شعاعا وراءها .
 ولكن ما هو حتى يقف وجها لوجه أمام هذا الحاجز الصفيق من الزواج الذي
 حال بينه وبين جنسة أحلامه التي باتت حليلة لرجل غيره ومحرم عليه .
 وتأبى عفته كما تأبى عليها عفتها أن تواصل حبيبها وهي في عصمة هذا
 الزوج مع شدة مقتها (١٠) لابن عمها الحبيب وشدة مقتها (١١) لهذا الزوج
 الغريب . وينقلب على حافرتة (١٢) وقد أحس بغدرة الليالي التي اغتالت
 سعادته فقلبت تلك الأحلام العذاب أضغاثا من السقام والعذاب . وما يلبث
 أن يختلط ليه ويهيم على وجهه في فيافي الضياع . أو تهدم الصدمة ويرميه
 الدنف في كسر الخباء . وتمر الأيام دون أن يسلوها أو ينساها أو يكون له
 مارب في امرأة سواها . وما تعتم يتابع الآمال أن تفيض ياسا فينضب رواء
 غصنه وتصوح زهرة شبابه فيقضي نحيبه وجدا وكما (١٣) . أو قد تكون
 النهاية على غير هذه الحالة (١٤) فنرى الفتى وقد شد حيازيمه للصدمة فطوى
 جوانحه على جمرة الأسى تارة يداري سحر لوعاتها وتارة يضيق بما يكابد
 فيزفر الحسرات ويسهل العبرات ثم لا يتلبث طويلا حتى يفدحه البسلاء
 فيصبح وهين البلى . أو قد يتسم له الحظ فيظفر بمناه فيتزوجها ويعيشان
 أسعد ما يكون حبيبان . ولكن القدر الأنكد لايمهلها إذ تكون الحبيبة عاقرا
 فيسعى به أهله لطلاقها ويتزوج بغسيرا لينجب وريثا لاسم الأسرة .
 ويعز عليه مطلبهم . ولكنهم لاينفكون عنه فما يزالون به حتى يطلقها (١٥)
 فإذا به يعيش العمر بقصة الندم متقلبا في جحيم الحنين والحرمان .

وما أصدق تسمية هؤلاء العشاق بالمتيمين فالتيم هو : التعبد . يقال
 تيمه الحب : يعني تعبد . وتيمته الحبيبة : استعبدت قلبه بحبها (١٦) .
 ولا شك أن حب هؤلاء المتيمين هو من دين هذه البادية أو القرى أو المدن العربية .
 وهو دين له تبعاته التي تتمثل في توحيد الحبيب وصدق الصباية وعفة
 الوصال .

وفي العصر الإسلامي نجد امتدادين لحب المتيمين . الامتداد الأول في
 العشاق الذين سماهم الرواة (بالعذريين) كعروة عفراء وجميل بثينة وقيس
 ليلى وقيس لبنى وذو الرمة ومي وكثير غيرهم . وحب العذريين الإسلاميين
 هو نفس حب المتيمين الجاهليين . حيث نشأت كل قصة من قصص
 العذريين مثل ما نشأت كل قصة من قصص المتيمين ، في البادية أو أثناء
 الرحيل أو في المرعى أو في الدار . وتطورت وانتهت كما تطورت وانتهت تلك
 لأنهم جميعا عاشوا في بيئة واحدة . ولذلك تشابهت أخبارهم وأشعارهم .
 ومن هنا خلط الرواة فيها وحرار النقاد في تمييز نسبتها . ومن هنا استغل

بعضهم هذا التشابه والتخليط للتشكيك في حقيقة وجودهم وصحة ما يروى عنهم -

لماذا سمي هذا الحب المثالي بالحب العذري ؟
لقد نسب الحب العذري الى قبيلة (عذرة) وهي قبيلة قحطانية او عدنانية على اختلاف النسابين (١٧) . عرفت بين قبائل العرب بكثرة عشاقها الذين اشتهروا بعفة الصباة وبالصباحة وبحيث بلغ من حالهم أنهم اذا احبوا ماتوا حبا .

فصاروا رمزا لهذا الحب العفيف العنيف . فنسب اليهم كل عاشق مثلهم . قال رجل من بني فزاره : ليس حسي أصدق في الحب من بني عذرة . ولا تضرب الامثال الا بهم . قلت يوما لعذري : أتعدون موتكم في الحب مزية وهو من ضعف البنية وضيق الرثة ؟ فقال : أما والله لو رأيت المحاجر البلج ترشق بالاعين الدعج من فوقها الحواجب الزجاج والشفاه السمر تقتر عن الثنايا الغر كأنها نظم الدر ، لجعلتموها اللات والعزى ونبتتم الاسلام وراء ظهوركم (١٩) .

وقيل لأعرابي : ممن الرجل ؟ فقال : من قوم اذا احبوا ماتوا . فقالت جارية سمعته : عذري ورب الكعبة . فقيل له : ومم ذاك ؟ قال : في نسائنا صباحة وفي رجالنا عفة .

أما لماذا نسب هذا الحب الى قبيلة عذرة وحدها بالذات دون قبائل العرب قاطبة ، فأستاذنا الجليل الدكتور يوسف خليف يرى ان ذلك يرجع الى : كثرة ظهور نماذج هذا الحب المثالي في قبيلة عذره . وكثرة ظهور العشاق المثاليين في هذه القبيلة ترجع الى ما كانت تنعم به من استقرار وخصب حيث كانت تنزل البادية العربية شمالي الحجاز الى العقبة على البحر الاحمر في منطقة تسمى بوادي القرى . وسميت بذلك لكثرة قراها . وكثرت قراها لخصبها ولوقوعها على طريق القوافل بين الحجاز والشام ومصر . والى ان الرواة رأوا في مسمى عذره - على كثرتهم - المثل الكاملة الصادقة لهذا الحب والالسن المعبرة عنه أدق تعبير وأروع . بالإضافة الى مثل التقاليد العربية التي تسيطر على الحياة الاجتماعية في البادية فتخلق هذا اللون المتميز من ألوان الحب الروحي . وبالإضافة الى المزاج الخاص بأولئك العشاق الذين يدفعهم الى التوحيد والعفة والاخلاص دون اللهو والمجون . وربما يرجع السبب ايضا الى ان اقدم من عرفه الرواة من أصحاب هذا الحب في العصر الاموي هو عروة بن حزام وكان عذريا من قبيلة عذره (٢١) . ولا شك ان أستاذنا الجليل الدكتور يوسف خليف قد أجمل أهم الأسباب التي تفسر نسبة هذا الحب الى عذرة خاصة . على اننا - مع ذلك - لو نظرنا الى القبائل الاخرى لوجدنا ظروفها مشابهة لظروف قبيلة عذرة . فقد كانت الحيرة عريقة في العمران والخصب . وهي امانة عرب العراق . وقد عرفنا من عشاقها المثاليين عمرو بن كعب بن النعمان بن المنذر ملك

الناذرة وابنة عمه عقيلة (٢٢) . وإياس بن مرة القيسي — وامه من بكر بن وائل — وابنة عمه صفوة . التي ارتحلت مع أبيها إلى اليمن (٢٣) . كما كانت اليمامة شرقي الجزيرة العربية حاضرة عامرة بحصونها وقراها وبساتينها . وهي أشبه مدن الجزيرة العربية بالمدينة . وقد عرفنا من عشاقها المثاليين المرقش الأكبر وابنة عمه أسماء (٢٤) . ومن ولد أخيه — حرملة — اشتهر المرقش الأصغر (٢٥) وابنة عمه فاطمة . وهما جاهليان من طيء . وعمرو وابنة عمه عقيلة بنت النجاد بن النعان بن المنذر . وهما من بني حنيفة ثم من ربيعة . وكانا معاصرين للفرزدق (٢٦) .

أما مكة فعرفنا من عشاقها في الجاهلية مسافر بن أبي عمرو القريشي . وكان يتعشق هنداً بنت عتبة وقد مات في هواها فرثاه أبو طالب — عم النبي ص — وكان صديقاً له (٢٧) .

ولا شك أن مثل التقاليد والبيئة التي خلقت هذا اللون من الحب المثالي في وادي القرى هي نفس مثل التقاليد والبيئة التي خلقت في الحيرة واليمامة وغيرهما . ولا شك أن هؤلاء العشاق جميعاً قد أحبوا أصدق الحب وعبروا عن حبهم أروع تعبير . والذي أود أن أذكره في تفسير نسبة هذا الحب إلى عذرة — بالإضافة إلى ما ذكره استاذنا الجليل الدكتور يوسف خليف — هو أن الرواة هم الذين نسبوه إلى عذرة بالذات فقد كان جلهم من المدينة وكانت المدينة مركز الرواية والتدوين في أوائل القرن الإسلامي الأول الذي اشتهرت فيه نسبة هذا الحب إلى عشاق عذرة . ولا شك أن هؤلاء الرواة هم الذين عنوا بأخبار العشاق فكانوا أكثر معرفة بقصص عشاق عذرة من عشاق القبائل الأخرى والتي كانت أقرب مدن الحجاز إلى وادي القرى الذي تنزله عذرة .

وقد تقول : فما بال هؤلاء الرواة لم ينسبوا هذا الحب إلى عشاق القبائل التي تنزل المدينة وهم أقرب العشاق إليهم والرواة بحكم هذا أكثر معرفة بقصصهم وشعرهم من عشاق عذرة في وادي القرى أو ينسبوه إلى عشاق القبائل في مكة وهي أهم وأكبر مدن الحجاز في العصر الإسلامي الأول؟ فأقول : إن المتيمين لم يظهروا بكثرة في الحرمين الشريفين لأن أكثر شبابها يومئذ وخاصة من أبناء الصحابة وأبناء الأمويين والمروانيين قد انغمروا في الشراء الذي صبته عليهم الفتوحات فانصرفوا إلى التمتع بلذات الحياة الجديدة التي انعكست صورها في شعرهم غزلاً لاهياً عابثاً إلا من كان من هؤلاء الشباب متعافياً بمزاجه ومتسامياً بمثله كقيس بن ذريح الذي كان أخاً في الرضاعة للحسين بن علي عليهما السلام (٢٨) . أما عشاق القبائل الأخرى التي كانت تسكن أطراف الحجاز وتجد كعشاق بني عامر فقد كانوا عشاق بني عذرة (٢٩) ولكن الرواة خلطوا في أخبارهم مما يدل على بعدهم عنهم بالنسبة لقربهم من عشاق بني عذرة .

أما الامتداد الثاني لحب المتيمين فقد تمثل في العشاق الزهاد كعبد

الرحمن الذي لقب بالقس (٣٠) لشدة تقواه وبشر الذي لقب بالعابد لشدة عبادته (٣١) وسواهما كثير من الشباب الذين تبتلوا لله تعالى في المساجد يقرأون القرآن الكريم ويحفظون الحديث النبوي الشريف في الحرمان والكوفتين وغيرهما من المراكز الإسلامية الكبرى . ولكن قلوبهم التي أرهقتها العبادة والتقوى لم تسلم من ملاك الحب بل لعلها كانت أكثر القلوب تعرضا لسهامه وأشدها تأثرا بهسا . وقد امتزجت في تلك القلوب الزكية العفة بالتقوى فكان حبهم روحيا خالصا بلغ أسنى معارج العطر والصفاء وكاد يلغي الجسد الغاء كلياً .

وبهذا يمثل العشاق الزهاد غاية الحب المثالي ونهايته التي فتحت أول باب للتصوف حتى غدت أسماء معشوقات العذرين كليلي ولبنى وهند وبثينة وعزه رموزاً عند الصوفية إلى محبوبهم الأعظم وهو الله جل جلاله لما أصبحت تدل عليه تلك الأسماء من معاني العفاف والصفاء المطلق (٣٢) . فانظر كيف تتمثل أنبل وأجمل مشاعر العفة والتقوى في حب عبد الرحمن لسلامة المغنية . فقد مر ذات يوم بجارية تغني فوق فسمع غناها فلما رآها شغف بهسا وشغفت به . وشاع حبهما في مكة فقالت له : ذات يوم : أنا والله أحبك . فقال وأنا والله أحبك . قالت : اني والله اشتقي أن أضع فمي على فمك . قال : وأنا والله أحب ذلك . قالت : فما يمنعك فان الموضع لخال ؟ فقال : ويحك اني سمعت الله يقول : الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين (٣٣) . فأنا والله اكراه ان يكون صلة ما بيني وبينك في الدنيا عداوة يوم القيامة . ثم نهض وعيناه تذرفان بالدموع (٣٤) من حبهما . ولاشك ان دموع هذا القس المنيم هي عصارة العفة العربية والتقوى الإسلامية . فقد ضرب القرآن الكريم مثلاً للعفة في قصة يوسف الصديق عليه السلام (٣٥) ومن ناحية ثانية وقف موقفا صريحا وحازما من علاقة الرجل بالمرأة حيث حث على التعفف وحذر من العلاقات غير المشروعة وأوجب على مرتكبيها أقسى الحدود وحبب الزواج ويسر أسبابه كما نرى في الآيات الكريمة التالية : قد أفلح المؤمنون الذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم وما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (٣٦) . قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون . عليم ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن . وان يستعففن خير لهن (٣٧) .

فهذه الآيات وكثير معها كلها تحت الشباب المؤمن على الاستعفاف والزواج .

ومما ينسب للرسول صلى الله عليه وآله وصحبه قوله « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء (٣٨) » . وقوله : من أحب فحف ومات مات شهيدا (٣٩) . وعن ابن عباس قال : لما اعتقت بريره - وكان

زوجها حبشياً وفي رواية اسود - خيرت فاختارت الفسخ فجعل يطوف في المدينة باكياً يترضاها فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو تزوجته فقالت : ان امرتنى بذلك . فقال : لا آمرك ولكني شفيع (٤٠) .

أما الخلفاء الاول فكانوا يترفقون بهؤلاء العشاق ويباركون حبهم العفيف ويبذلون وسعهم في تحقيق سعادتهم . شكوا أحدهم الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلواه في الهوى فقال له عمر : ذلك ما لا يملك (٤١) . وأحب مؤذن الامام علي كرم الله وجهه جاريته ، فوهبها له (٤٢) . وسعى الحسين عليه السلام في خطبة لبنى من ابيها الى قيس بن ذريح وتزويجها اياه مرتين (٤٣) . كما سعى في زواج عروة بن قيس (٤٤) .

ولابد لنا من مناقشة الباحثين الذين تعرضوا للحب المثالي . فقد حاول موسى سليمان ان ينفي عن هذا الحب مثاليته وان يجعل فيه من الغريزة والعفة بمقدار ما في العاشقين من الجسد والروح . وانه لم يرتفع عن مادية البشر الى روحية الملائكة . وصوره حبا فيه وصال ونوال بين الحبيبين . وصب همه على نفي مثاليته واثبت ماديته (٤٥)

وسوف يأتي ردنا عليه خلال كلامنا عن مثالية هذا الحب .

أما الدكتور عبدالستار الجوازي فقد عزا نشأته الى قبيلة عذره التي كانت تسكن بوادي الحجاز وزعم انه ظهر في اواسط القرن الهجري الاول بالدرجة الاولى نتيجة للحصانة التي ضربها الاسلام على علاقة الرجل بالمرأة . وبالدرجة الثانية نتيجة لعفة التقاليد العربية في البادية . ولم يميز بين هذا الحب المثالي عن ذلك الغزل اللاهي الذي كان الشاعر الجاهلي يستهل به قصيدته فقال : « ظهرت صورة هذا الحب في الادب العربي في اواسط القرن الهجري الاول في عذرة وحدها ولم تكن قد عرفت لاهي ولا غيرها من القبائل من قبل . واذا اردنا ان نكشف عن تاريخه وجدناه وليد التطور الاجتماعي الجديد الذي أحدثه الاسلام في الحياة العربية . على اننا اذا نظرنا في الادب الجاهلي لوجدنا في بعض ثناياه بذورا لعاطفة الحب وصورة بسيطة من صورته فيها سذاجة وليس فيها السعة التي ننشدها في الحب العذري ولا الاغسوار البعيدة التي ينفذ اليها في النفس ولا الافاق الواسعة التي ينبسط فيها . وآية ذلك ان عاطفة الحب في الشعر الجاهلي يعوزها الاستمرار والثبات فلا يكاد الشاعر يلم بها حتى يستطرد منها الى وصف الناقة التي توصله الى الحبيبة أو المفازة التي يقطعها من اجل لقائها . ولعل هذا بالاضافة الى العوامل الاجتماعية - التي سنفصلها فيما بعد - يبيح لنا ان نرجع ظهور هذا الحب الى ما بعد انبثاق فجر الاسلام وتمكنه في نفوس العرب ، وقد نشأ هذا الحب في البادية وما كان خليقا ان ينشأ في المدن والحواضر . فلقد كانت المدن والحواضر في احدى حالتين : حال الاشتغال بالحكم والسياسة وأمور الدولة سواء في ذلك تأييد الحكم القائم وتمضيده والامتنال لما يأمر به كما كان الامر في الشام . أو المعارضة له والتربص به والثورة عليه كما كانت

الحال في العراق • وحال أخرى اقتضتها السياسة الاموية في الحجاز • فقد وجدت ان تقصيه عن مجال السياسة واتاحت لابناء ابي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من بناء الدين الجديد والامبراطورية الجديدة حياة اللهو والعبث بما اغدقت عليهم من طائل الاموال وما شحنت بيئاتهم من وسائل اللهو • وفي هذا العصر - عصر الاستقرار السياسي في الاسلام - يشتهر بنو عذرة بشيء لم يعرفوا به من قبل بل لم يعرف به احد من قبلهم (٤٦) •

فالدكتور الجوّاري يحصر نشأة الحب العذري في عذرة فقط دون القبائل الاخرى وفي البادية دون القرى والحوضر • وان نشأته كانت بعد الاسلام وليس في الجاهلية وانه كان نتيجة امتزاج عفة تقاليد البادية العربية بروح الاسلام وحدوده • ولقد بينا انه لم ينشأ في عذرة وحدها بل في جميع القبائل • ولا في البادية وحدها بل في القرى والحوضر • ولا بعد الاسلام بل منذ الجاهلية • اما الغزل الذي كان شعراء الجاهلية يستهلون به قصائدهم ثم ينطردون منه الى وصف الناقة والمفازة وغيرها من أغراض القصيدة فلا نراه بذورا ساذجة لعاطفة الحب العذري • فاين الساذجة والعذرية في معلقة امرئ القيس (٤٧) :

اذا ما بكى من حولها انصرفت له بنصف وتحتي نصفها لم تحول
وبيضه خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل
او في معلقة طرفة بن العبد (٤٨) :

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب بهكنه تحت الخباء المعمد
او فيما يشبه ذلك من شعر الاعشى وغيره مما لا يمكن ان ندخله في باب الغزل بله في الحب العذري •

اما الدكتور طه حسين فقد رأى في الحب العذري عند العرب مكرمة تشهد على أصالة السمو الروحي في الشخصية العربية يعتد بها العرب من امجد مفاخرهم القومية • بيد انه يعز على نزعة ابي عبيدة (*) - التي يدين بها الدكتور طه حسين - ان تكون مثل هذه المكرمة في العرب • فكيف السبيل الى انكارها او التشكيك فيها او تشويهها ؟ بهذا الدافع توجه الى معالجة موضوعهم • فاقراً هذه المقدمة التي نفت فيها وحاويع فؤاده فبت فيها شكوكه والتي جعلها توطئة للهجوم على مثالية حبه لتجس بالدوافع الحقيقية التي دفعت لدراسة هذا الموضوع • وسيبدأ احساسك بذلك من العنوان الذي وضعه لهذا الموضوع حيث جعله الغزل ولم يجعله الحب • ثم انه قسم هذا الغزل الى قسمين • القسم الاول : الغزل الكاذب وهو الذي يمثله قيس وليلى وقيس ولبنى وعروة وغفراء وجميل بشينة ومن اليهم • اما القسم الثاني فهو الغزل الحقيقي وهو الذي يمثله عمر بن ابي ربيعة وامثاله من اهل اللهو • ثم قال عن اصحاب القسم الاول انه سيجمده

شخصيتهم وسيزعم ان هؤلاء الشعراء بين اثنين اما ان يكونوا اثرا من آثار الخيال قد اخترعهم اختراعا . واما ان لا تكون لهم شخصية بارزة ولا خطر عظيم . وانما عظم الخيال امرهم و اضاف اليهم ما لم يقولوا وما لم يعملوا . واخترع حولهم من القصص الوانا واشكالا جعلت لهم في الادب العربي هذا الشأن العظيم الذي لا يكاد يقوم على شيء . نعم سأذكر طائفة من الشعراء او سأذكر شخصيتهم وانا اعلم ان فريقا غير قليل من الذين يعنون بالادب لا يحبون هذا النحو من البحث الذي ينتهي الى الانكار أو الى الشك . فهذا البحث هادم للمجد العربي معتمد على الادب العربي وانما الباحث الماهر حقا عند هؤلاء هو الذي يسلك كل سبيل ويتكلف كل حيلة ليضيف الى المجد العربي مجدا ويثبت ان الادب العربي يمتاز بالالوان الفنية التي لا تحصى . اذا اردت ان ترضى هؤلاء فتعلق حبهم للعرب واسرافهم في هذا الحسب . واضف الى العرب ما قالوا وما لم يقولوا - وما عملوا وما لم يعملوا . واجعل امتهم اشرف الامم ولغتهم اشرف اللغات وادبهم ارقى الاداب لا تحسب في ذلك حسبا ولا تنتهي فيه الى مقدار . ولا تعترف للامم الحديثة بشيء الا تكون قد ورثته عن العرب ونقلته عنهم نقلا . . تفز بما شئت من تصفيق واعجاب (٥٠) . وبعد هذا التمهيد شرع بهجومه على العذريين فتناولهم بالانكار والتشويه والسخرية والتسخيف . فقيس وليلى وقيس ولبنى وعبدالله بن العجلان وهند وعروة وعفراء وجميل بثينة وغيرهم من المتيمين والعذريين ليسوا اشخاصا حقيقيين يعرفهم التاريخ وانما هم رموز وهمية لاشخاص خرافيين خياليين اخترعهم خيال الرواة اختراعا ليلهوا بهم الناس كما كانوا يلهونهم ويسلونهم بأحاديث السعلاة وامثالها من الحكايات الخرافية . بل ان هؤلاء الرواة لم يخترعوا قصصهم وانما اقتبسوا فكرتها واسلوبها اقتباسا من الثقافة الفارسية واليونانية لان العرب عندما انتصروا على الفرس عسكريا فان الفرس والروم انتصروا على العرب انتصارا أدبيا وحضاريا وكذلك تدفقت الاداب والحضارة اليونانية وامتزجت بالاداب والحضارة الفارسية وعشت بأداب العرب وحضارتهم فادخلت وأضافت اليها لم تكن لها به عهد (٥١) . فهو باختصار بأزاء قصص فنية اخترعها او اقتبسها خيال الرواة لا بأزاء عشاق حقيقيين تاريخيين ، لذلك فهو لا يبحث عن قبائل هؤلاء العشاق ولا عن مثالياتهم . وانما الذي يعنيه كل العناية ويجهد في البحث عنهم هم الرواة الذين اخترعوا أو اقتبسوا هذا الفن الادبي الجديد لدى لم يكن للعرب به عهد قبل فتوحاتهم . لكنه ما أن يجد في البحث حتى يكتشف عقم شكوكه فاسمع اعترافه . « نعم أنا أعلم حق العلم ان هناك صعوبات كثيرة بيني وبين اتقان هذا البحث . أول هذه الصعوبات ان هذه القصص الغرامية لا تنسب الى كاتب بعينه ولا الى كتاب معروفين . واذن فقد نتكلف كثيرا من العناء في البحث عن شخصية هؤلاء القصاص دون ان ننتهي الى نتيجة . وقد يكون كل ما ننتهي اليه أننا

انكرنا أشخاصا معروفين دون ان نصل الى أشخاص آخرين . أنكرنا أشخاص الشعراء دون ان نصل الى أشخاص القصاص ومع ذلك فلم نتكلف البحث عن أشخاص القصاص اذا لم يكن اليهم سبيل ؟ (٥٢) »
فالمسألة عند الدكتور طه حسين ليست مسألة عفة هذا الحب ومثاليته وفي أية قبيلة أو في أي عصر ولا في أية بقعة نبت، ولا عن تأثير الاسلام في تطوره ولا الكشف عن عواطف العذريين وصدق حبهم ، فهذا لا يستحق الجهد فلا طائل وراءه لان قصصهم من اساسها اختراع في اختراع او اقتباس في اقتباس .

واما استاذنا الجليل الدكتور يوسف خليف فهو بحق اول من أشار الى البداية التاريخية الصحيحة للحب العذري متمثلة في حب المتيمين الجاهليين . وان العذريين امتداد طبيعي وحتمي للمتيمين . وان مثل التقاليد العربية في البادية والقرى والمدن هي التي خلقت هذا الحب . وهو بذلك لم يكن ظاهرة جديدة على العرب ولم ينشأ بعد الاسلام ولم يختص بقبيلة عذرة أو غيرها انما هو نبات عربي غرسه ورعته مثل التقاليد العربية في الصحارى والقرى والمدن (٥٣) . هذا الى ما تأنس في لهجته واسلوبه من غيرة واعتزاز بالتراث العربي الاسلامي الادبي المجيد .
وبعد هذه النبذة التي الممنا فيها الماما عاما بنشأة الحب العذري ونسبته نحاول ان نقف على الصفات التي جعلته مثاليا فميزته عن الغزل اللاهوي الذي ينشد اللذة في المرأة والذي يطلق عليه اغلب الباحثين صفة الحب مجازا أو خطأ .

ونبدأ بالتعرف على المعنى اللغوي لكلمة « الحب » ثم نتبع معناها في رأى الاوائل قال بعضهم : « الحب مشتق من الاحباب » وهو اللزوم والثبيت الذي لا يبرح معه . قال الزبيدي : أحب البعير : اذا برك فلم يثر . والاحباب ان يشرف البعير على الموت من شدة المرض فيبرك ولا يقدر ان ينبعث . وقال الجوهري : بعير محب وقد أحب احبابا . وهو ان يصيبه مرض او كسر فلا يبرح من مكانه حتى يبرأ أو يموت (٥٤) . ولا شك أننا نلمس في هذا معنى كلام ذلك الاعرابي العذري الذي سئل : ممن الرجل ؟ فقال : من قوم اذا أحبوا ماتوا . وهذه آية الصديق في الحب العذري . وقال بعضهم (اصله الحب) وهو الخشبات الاربع التي توضع عليها الجرة ذات العروتين (٥٥) . فعلى هذا سمي الحب حبا لانه يتحمل عن محبوبه ثقل ما يوضع عليه . ولعلنا نلمس في هذا آية الخلود . فلو تأملنا في سيرة اولئك العذريين لوجدنا أنهم ظلوا مقيمين على حبهم مهما لاقوا ممن يحبون . وقيل : الحب : اسم لصفاء المودة ، فالعرب تقول لصفاء بياض الاسنان ونضارتها : حبيب الاسنان (٥٦) . وقيل : هو من : حب الماء وهو الاناء الواسع لانه يمسك بما فيه ويستوفي منه فلا يدخله شيء . بعد (٥٧) .

ونحنس في هذا آيتي العفة والتوحيد . فصفوة صفات الحب العذري اذن هي : الصديق والخلود والعفة والتوحيد . اما العفة فهي اصفى معاني عذريته لان هؤلاء العشاق على ما يعتلج في قلوبهم من شوق مشبوب باللهفة للشم واللمس والضم لا يكون فهما في اللقاء سوى النظرة والنجوى . قيل لاعرابي : ما كنت صانعا لو ظفرت بمن تهوى ؟ قال : امتع عيني من وجهها وقلبي من حديثها (٥٨) . اما التوحيد فان اقتصار أحدهم على واحدة بعينها لا يعرف سواها طوال حياته مع انه لا يرى منها سوى النظرة والكلمة لاصدق دليل على طهر عواطفهم وعلى سموهم بل على جبروتهم في أقوى وأعف العواطف البشرية في حين ان تعدد المعشوقات في آن واحد يدل على ضعة وضعف .

ولكن لماذا لا يعشق العذري الا هذه المرأة دون غيرها من النساء فلا يحب معها او بعدها غيرها ؟ ولماذا هي أيضا لا تعشق الا هذا الرجل بعينه ولا تشرك في حبه غيره من الرجال ؟ ما سر عدم تعدد المعشوقات في هذا الحب ؟ ما سر هذا التوحيد وما دليله فيه ؟ نلتبس الاجابة على ذلك في أقوال اسلافنا الذين وجدوا ان سر التوحيد هي (وحدة روحي العاشقين) . قال الاصمعي :

يا اصمعي فكرت في العشق مم هو فلم أقف عليه فصفه لي حتى اخاله جسما مجسما ؟ قال الاصمعي : لا والله ما كان عندي قبل ذلك فيه شيء . فاطرقت مليا ثم قلت : نعم يا سيدي اذا تقادحت الاخلاق المتشاكلة وتمازجت الارواح المتشابهة ألهبت لمح نور ساطع يستضيء به العقل وتهتدز لاشراقه طباع الحياة ويتصور من ذلك النور خلق خاص متصل بجوهرها يسمى العشق . فقال : أحسنت والله يا غلام . اعطه واعطه واعطه . فاعطيت ثلاثين ألفا (٥٩) . والاصمعي كان يخرج الى البادية يجمع شعر الاعراب فيقف على أحوال عشاقهم . وعشق الاعراب أسعد وأصدق العشق . فجاء تفسيره اعرابا صادقا لما كان يحسه هارون الرشيد الذي شهدته وشق عليه حب جاريتته وتمنعها . . وقال ابن الجوزي : العشق : شدة ميل النفس الى (صورة ثلاثم طبعا) فاذا قوي فكرها فيها تصورت حصولها وتمنت ذلك فيتجدد من شدة الفكر مرض (٦٠) . وقال أيضا : سبب العشق مصادفة النفس ما يلائم طبعا فتستحسنه وتميل اليه (٦١) . وقيل سبب العشق نوع موافقة بين الشخصين في الطباع (٦٢) . وقال بعض الحكماء : العشق لا يقع الا لمجانس وأنه يقوى ويضعف على قدر التشاكل . وقيل لبعض الحكماء : أي الحب أغلب ؟ فقال : حب متشاكليين (٦٣) .

لم يك من شكلي ففارقته
كيف أنساك وروحني
والناس أشسكال وألف (٦٤)
صنعت من جنس روحك (٦٥)

وقال النظام : العشق ثمرة المشاكلة ودليل على تمازج الروحين .

وقال معمر : العشق ينتج عن المشاكسة . وهو من تقارب الطبائع ونماس الأطراف . وقال علي بن منصور : العشق من ناحية الطلاقة والمجانسة في التركيب والصيغة . وقال حماد بن أبي حنيفة : العشق لا يعلق الا على نسب التشاكل والى غاية الرقة يضاف صاحبه . وقال أبو حفصة الجداد : العشق شاهد على روح التجانس (٦٦) . وارجعه اخوان الصفا الى اتحاد الروحين وبينوا أن الاتحاد هو من خاصية الامور الروحانية والأحوال النفسانية . لأن الامور الجسمانية لا يمكن فيها الاتحاد بل المجاورة والممازجة والمماسسة لا غير . فأما الاتحاد فهو في الامور النفسانية (٦٧) . وقد شرح ابن حزم هذه المشاكسة والمجانسة والاتحاد بين طبائع المتحابين فقال : والذي أذهب اليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع وقد علمنا ان سر التمازج والتباين في المخلوقات انما هو الاتصال والانفصال والشكل دائبا يستدعي شكله ، والمثل الى مثله ساكن وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد ، والتناظر في الأضداد والموافقة في الأنداد (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن اليها) . فجعل علة السكون أنها منه . ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص . ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده . فعلمنا أنه شيء في ذات النفس . وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب ، وتلك تفتى بفناء سببها ، حاشي محبة العشق الصحيح الممكن من النفس فهي التي لا فناء لها الا الموت (٦٨) . فهذه الآراء تبين أن الحب هو تجانس روحي الحبيبين .

واذا كان الحب تجانس روحيين وليس تجانس صورتين في الجمال وانقلب فلا عجب أن يقع بين اثنين هما على طرفي المفارقة بين الجمال والقبح وان يكون جبهما أصدق حب كحب عنتره وعبله وكثير وعزة ونصيب وزينب - بالإضافة الى وقوعه بين متجانسين في الروح والقد . وكم من جميلين لم يقع بينهما حب لعدم مجانسة روحيهما .

وانحب العذري ليس هو أصدق أنواع الحب بل أن الحب الصادق لا يكون الا علريا .

(١) الانطaki : تزيين الاسواق ٨٤

(٢) المصدر السابق ٨٦ . القاري : مصارع العشاق ٢٢٧/١ .

(٣) الانطaki : تزيين الاسواق ٧٦ - ٧٨ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٥٠٢ - ٥٠٤ .

القاري : مصارع العشاق ٢٧/٢ .

(٤) الانطaki : تزيين الاسواق ٨١ - ٨٢ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٤٩٥ - ٥٠٣ .

القاري : مصارع العشاق ٢١٤/١ .

(٥) الانطaki : تزيين الاسواق ٨٠ .

(٦) الدكتور يوسف خليف : الحب المثالي عند العرب ٦٦ ، ٦٨ .

(٧) المصدر السابق ١٨ .

- (٨) الانباري : شرح القصائد السبع الطوال الجامليات من ١١٠ ، ١١١ ، المكاء : طائر يشبه المصفر قيل انه لا يغرر الا في الخصب (شرح معلقة امرئ القيس) .
- (٩) الدكتور يوسف خليف : الحب المثالي عند العرب . مع تصرف في العبارة ١٨ .
- (١٠) ابن منظور : لسان العرب مادة (ومق) . المقة : المحبة لغير ريبة .
- (١١) المصدر السابق مادة (ممت) . المقت : أشد الإغاض .
- (١٢) المصدر السابق مادة (حضر) . رجع من حيث جاء .
- (١٣) القاري : مصارع العشاق ٢١٣/١ ، ٢٢٧/١ ، ٢٥٠/١ ، ٢٦٥/١ ، ٢٩٢/١ ، الدكتور يوسف خليف : الحب المثالي عند العرب ١٨ .
- (١٤) المصدر السابق بتصريف في العبارة ٦٨ .
- (١٥) المصدر السابق ٦٧ .
- (١٦) لسان العرب والقاموس المحيط مادة (تيم) .
- (١٧) الدكتور يوسف خليف : الحب المثالي عند العرب ١١ .
- (١٨) ابن الجوزي : ذم الهوى ٢٢٨ .
- (١٩) المصدر السابق ٢٢٩ ، ابن قيم الجوزية : روضة المحبين ٣٣٧ ، القاري : مصارع العشاق ٣٧/١ ، الوشاء : الموشى ٨٥ ، ابن حجلة : ديوان الصبابة ٢٩ .
- (٢٠) ابن الجوزي : ذم الهوى ٢٢٨ ، ابن قيم الجوزية : روضة المحبين ٣٣٦ - ٣٣٧ ، الانطاكي : تزيين الاسواق ٨
- (٢١) الدكتور يوسف خليف : الحب المثالي عند العرب ١٦
- (٢٢) الانطاكي : تزيين الاسواق ١٠٣
- (٢٣) القاري : مصارع العشاق ١٥٠/١ ، ١٥١/١
- (٢٤) ، (٢٥) المصدر السابق ٢٢٧/١ ، الانطاكي : تزيين الاسواق ٨٤
- (٢٦) القاري : مصارع العشاق ١٢٢ - ١٢٣
- (٢٧) الاغانى ٥٠/٩ ، القاري : مصارع العشاق ٢٥٠/١
- (٢٨) الاغانى ١٨١/٩ ، الانطاكي : تزيين الاسواق ٤٤
- (٢٩) المصدر السابق :
- (٣٠) ابن الجوزي : ذم الهوى ٢٥٦ - ٢٥٨
- (٣١) القاري : مصارع العشاق ٢٣٥/٢ ، الانطاكي : تزيين الاسواق ١٧٧ - ١٧٨
- (٣٢) أنظر ديوان ابن الفارض ، ومقدمة كتاب عطف الالف : للمديلمي ، مشارق أنوار القلوب ١٣٦ ، الانطاكي : تزيين الاسواق ٦٨/١ ، المبرد : الكامل في الادب ٦٨٢/٢ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٥١٢ ، ٥١٥ ، ٥٢٢
- (٣٣) سورة الزخرف آية ٦٧
- (٣٤) ابن قيم الجوزية : روضة المحبين : ٣٢٥ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٢٥٦ - ٢٥٨
- (٣٥) ابن قيم الجوزية : روضة المحبين ٣١٧ - ٣٢١
- (٣٦) المؤمنون آية ١ ، ٥ ، ٦ ، ٧
- (٣٧) النور - آية ٣٠ ، ٣١ ، ٦٠
- (٣٨) ابن قيم الجوزية : روضة المحبين ٣٢٨ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٢٧٩
- (٣٩) القاري : مصارع العشاق ١٣/١ ، ١٤/١ ، ١٠٣/١ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٣٢٦ - ٣٢٧ ، ابن حجلة : ديوان الصبابة ٣٠
- (٤٠) الانطاكي : تزيين الاسواق ٣٠
- (٤١) المصدر السابق ٩٠/١ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٥٨٦ ، ابن حجلة : ديوان الصبابة ٣١

- (٤٢) المصدر السابق ٣٧/١ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٦٠٤
 (٤٣) الانطاكي : تزيين الاسواق ٣٦/١ ، ٥٣/١
 (٤٤) المصدر السابق ص ٣٠
 (٤٥) موسى سليمان : الحب العذري
 (٤٦) الدكتور عبدالستار الجوزي : الحب العذري ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٢
 (٤٧) ، (٤٨) ابن الانباري : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٤١ ، ٤٨
 (٤٩) المصدر السابق : ١٩٦
 (٥٠) كان أبو عبيدة يهوديا شمسويا مجاهرا بشعوبيته . وقد صنف عدة كتب في
 مثالب العرب .
 (٥١) حديث الاربعاء : ١٧٣ - ١٧٤
 (٥٢) حديث الاربعاء : ١٧٣ - ١٨٢
 (٥٣) حديث الاربعاء : ١٧٣ - ١٨٣
 (٥٤) الحب المتالي عند العرب : المقدمة
 (٥٥) لسان العرب . مادة (حب) والقاموس المحيط والتاج : مادة (حب) وأبو حسن
 الديلمي : عطف الألف ١٥ ، وابن قيم الجوزية : روضة المحبين ١٥
 (٥٥) ، (٥٦) ، (٥٧) اللسان والقاموس والصحاح (مادة : حب) ، ابن قيم الجوزية :
 روضة المحبين ١٥-١٦ ، أبو حسن الديلمي : عطف الألف ١٥-١٨ ، الانطاكي : تزيين
 الاسواق ١٨/١
 (٥٨) ابن قيم الجوزية : أخبار النساء ٣٢
 (٥٩) القاري : مضارع العشاق ٢/٢٠٨ ، ٢/٢١٢ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٢٧٦ .
 ٢٩١ ، ٢٩٢
 (٦٠) ابن الجوزي : ذم الهوى ٢٩٣
 (٦١) المصدر السابق ٢٩٦
 (٦٢) ، (٦٣) المصدر السابق ٢٩٧
 (٦٤) ، (٦٥) المصدر السابق ٢٩٧ - ٢٩٨
 (٦٦) الديلمي : عطف الألف ٣٠ - ٣١
 (٦٧) اخوان الصفا : الرسالة السادسة في ماهية العشق ٢/٢٧٢
 (٦٨) ابن حزم : طوق الحمامة ٦ - ٧

مصادر البحث

- ١ - الدكتور أحمد عبد الستار الجوزي - الحب العذري
- ٢ - اخوان الصفا - الرسالة السادسة في ماهية العشق . ط دار صادر
 وبيروت ١٩٥٧ .
- ٣ - الاصفهاني - الاغانى ط . دار الكتب المصرية
- ٤ - الانطاكي - تزيين الاسواق . ط الازهرية ١٣٢٨هـ
- ٥ - ابن الانباري - شرح
- ٦ - الجوهرى - صحاح العربية
- ٧ - ابن الجوزي - ذم الهوى . ط السعادة ١٩٦٢
- ٨ - ابن حجلة - ديوان الصبابة مطبوع على هامش تزيين الاسواق

- ٩ - ابن حزم - طوق الحمامة • ط الاستقامة بمصر
- ١٠ - الديلمي - عطف الالف
- ١١ - الزبيدي - تاج العروس
- ١٢ - الدكتور زكي مبارك - العشاق الثلاثة ط دار الهلال
- ١٣ - الدكتور طه حسين - حديث الاربعة • ط دار المعارف بمصر
- ١٤ - ابن الفارض - ديوان ابن الفارض •
- ١٥ - الفيروز آبادي - القاموس المحيط
- ١٦ - القاري - مصارع العشاق • ط دار صادر وبيروت سنة ١٩٥٨
- ١٧ - ابن قيم الجوزية - روضة المحبين
- ١٨ - ابن قيم الجوزية - أخبار النساء ط بيروت
- ١٩ - المبرد - الكامل في التاريخ
- ٢٠ - ابن منظور - لسان العرب
- ٢١ - موسى سليمان - الحب العذري
- ٢٢ - الوشاء - الموشى
- ٢٣ - الدكتور يوسف خليف - الحب المثالي عند العرب • ط دار الهلال •

